فهل يتصور أن يقر الخصم بالأصلين ، ثم يمكنه إنكار صحة الدعوى ؟!

٣- إدعاء استحالة دعوى الخصم :

فنحن هنا لا نتعرض لثبوت دعوانا ، بل ندعى استحالة دعواه هو ، لأنها مفضية إلى المحال ، وما يفضى إلى المحال فهو محال قطعاً .

كقولنا : إن صحت دعوى الفلاسفة بأن دورات الفلك لا نهاية لها ، لزمهم الإقرار : بأن ما لا نهاية قد انقضى ، ومعلوم أن هذا اللازم محال ، فيعلم منه لا محالة : أن المفضى إليه محال ، وهو مذهب الخصم [١] .

بهذه المناهج الاستدلالية - رغم ما بينها من اختلاف فى قوة الإقناع بها ، هى ملزمة للخصم ، وموصلة إلى المطلوب من إثبات العقائد .

ويقرر الغزالى هذه المناهج بطريقة مختلفة فى كتابه « القسطاس المستقيم » ويرى أنه قد استخرجها من القرآن الكريم [٢] .

ويرى أن الموازين العقلية فى القرآن الكريم هى :

١- ميزان التعادل : ويشتمل على أشكال ثلاثة :

أ- الأكبر   ب - الأوسط   جـ - الأصغر .

ويمكن الرمز للأول هكذا :

« أ هى ب » ، و« ب هى جـ » إذا « أ هى جـ »

ومثاله : إن كل من يقدر على إطلاع الشمس إله [٣] .

وإلهى هو القادر على إطلاع الشمس   إذا إلهى هو الإله .

ويمكن الرمز للثانى هكذا :

« أ هى ب » ، و« جـ ليست ب » إذا « أ ليست جـ »

ومثاله : « القمر آفل » « والله ليس بآفل » إذا « ليس القمر بإله » .

ويمكن الرمز للثالث هكذا :

« ب هى أ » ، و« ب هى جـ » إذا « بعض أ هى جـ » .

ومثاله : « موسى عليه السلام بشر » ، « وموسى أنزل عليه الكتاب »

إذا « بعض البشر أنزل عليه الكتاب » .

٢- ميزان التلازم : (وهو القياس الشرطى المتصل)

---

(١) راجع الاقتصاد فى الاعتقاد ٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر كتابنا « قضية التأويل فى الفكر الإسلامى » ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) راجع قصة إبراهيم مع النمرود (الأنعام) ٧٤ - ٧٩ .

ومثاله : « لو كان للعالم إلهان لفسد » ، « ومعلوم أنه لم يفسد »
إذا « ليس للعالم إلهان بل إله واحد » .

٣- ميزان التعاند : (وهو القياس الشرطي المنفصل)

ومثاله : « وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين » ومعلوم أننا لسنا في ضلال
إذا « فأنتم ضالون » [١] .

ويرى الغزالي : أن هذه الموازين موجودة في القرآن الكريم ، وأنها موافقة لما قرره علماء المنطق ، وأن القدماء منهم قد أخذوها عن صحف الأنبياء كإبراهيم وموسى عليهما السلام .

ولكن الحقيقة : أن الغزالي حين استخرج هذه الأدلة القرآنية ، قد استلهم القياس المنطقي الأرسطي كما هو واضح ، ولذلك سجل عليه هذه الملاحظة الإمام ابن تيميه حين ذكر أن القرآن الكريم قد استخدم طرقاً برهانية لم يعرفها منطق أرسطو ، وأن الغزالي قد استخرج منه طرقاً لا تعدو أن تكون منطق أرسطو صيغ بأسلوب الغزالي ، وهي في الحقيقة الأقيسة اليونانية المعروفة [٢] .

والغزالي في الحقية لا يرى مانعاً من استخدام المنطق الأرسطي في تقرير العقائد الدينية والحجاج عنها لأن المنطق مجرد أداة لا يصح الحكم عليها لذاتها بأنها حرام أو حلال [٣] .

ولعل الذي دعاه إلى إستخدام المنطق في تقرير العقائد وإثباتها والدفاع عنها - بعد أن ظل المتكلمون والفقهاء وغيرهم لعهده يتحرجون من إستخدامه ، بل ويحرمون الاشتغال به ، ويعدونه زندقة وكفراً [٤] - هي الظروف التي نشأ الغزالي بينها ، وعايشها مع المعتزلة والفلاسفة وغيرهم ، حيث لم ير بداً من استخدام أمضى الأسلحة في مواجهة خصومه .

والذي يعنينا هنا هو : أن الغزالي المعلم والمربي لم يرد أن يجعل من هذا المنهج طريقاً لجميع الناس يسلكونه إلى الإيمان بربهم والاستدلال على عقائدهم ، ورأى أن هذا المنهج لا ينبغي أن يعلمه الناس جميعاً ، نظراً لاختلاف استعداداتهم لتقبل مثل هذا النوع من الأدلة ، ويرى أن مثل هذا النوع ينبغي أن ينظر إليه كالأدوية

---

(١) راجع « القسطاس المستقيم » / ١٨ وما بعدها / مجموع القصور العوالي / الجندي .
(٢) راجع النشار « البحث عند مفكري الإسلام » : ٢١٤ ، دار المعارف / ١٩٧٨ ط ، ٤ .
(٣) راجع بحثنا « الفلسفة الإسلامية » مدخل للدراسة والبحث .
(٤) راجع بحثنا « الفلسفة الإسلامية » مدخل للدراسة والبحث .

قريب من إيمان العوام ، وإن كان أعلى درجة ، وأوثق يقيناً منه .

٣- إيمان العارفين : وهو المشاهدة بنور اليقين ، وهذا هو أعلاها وأوثقها جميعاً .

ويشبه الغزالي النوع الأول بإيمان من سمع أن رجلاً في الدار فصدق بوجوده ، دون أن يسمع صوته أو يراه ، وهذا الإيمان قد يعتريه الخطأ في الخبر .

ويشبه النوع الثاني : بمن سمع صوت الرجل داخل البيت فصدق بوجوده ، وهذا النوع قد يعتريه الخطأ ، فقد تتشابه الأصوات ، وقد يصل الصوت من خارج البيت فيظنه من داخله .

ويشبه النوع الثالث : بمن دخل الدار ورأى الرجل بعينيه ، فهذا لا يمكن الخطأ فيه بحال وهذه هي المعرفة الحقيقة ، والمشاهدة اليقينية ، وهي مرتبة المقربين ، وهي عين اليقين لأنها معرفة عن مشاهدة لا عن دليل أو تقليد [1] .

=ويري الغزالي : أنه إذا عجز النظر عن كشف الحقائق للناظر ، أو قصر دون إزالة ما عساه يكون من شبهات أو لبس ، فعندئذ يجب على طالب الحق أن ينتظر وأن يتجرد من حوله (فعساه أن تنفتح له عين أخرى يبصر بها الحق ويعلم بها الحقيقة بعد أن انتهى إلى هذا الحد دور العقل والفكر [2] .

وبذلك يفتح لنا الغزالي منهجاً آخر للمعرفة ، وطريقاً يكمل به دور العقل ، ويجمع من ثم هذه المناهج الثلاثة « الشرع ، والعقل ، والذوق » .

=ولما كان كثير من الناس يشككون في إمكان المعرفة عن طريق الذوق ، وفي أنها طريق موصلة إلى الحقائق الإيمانية اليقينية ، فقد رأينا الغزالي يضرب لنا المثل بسيرته الذاتية وتجربته الشخصية في هذا الطريق ، ثم هو لا يكتفي بذلك وإنما يسوق لنا الأدلة على إمكانها ويقينها .. ويستشهد على إمكانها ويقينها بأمرين :

١- عجائب الرؤيا الصادقة :وهي جزء من النبوة كما ورد بذلك الحديث الشريف[3] « إذ أن النائم يدرك ما سيكون من الغيب : إما صريحاً ، وإما بمثال يكشف عنه التعبير »[4] وهذا نوع من المعرفة لا تدركه الحواس ، ولا يدركه العقل ، فدل ذلك على أن في الإمكان وجود طريق آخر لإدراك مثل هذه الأمور ، لا سبيل إليها

---

(١) الإحياء : ٣ / ١٣ ، ١٤ .

(٢) ميزان العمل : ٣٩ ، ٤٠ ومناهج البحث / النشار / ٢٦٤ .

(٣) في حديث أبي هريرة « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » متفق عليه .. انظر « رياض الصالحين » باب الرؤيا وما يتعلق بها .

(٤) « المنقذ من الضلال » :١٨٦ .

التي يعالج بها المرضى ، لا يلجأ إليها إلا المريض الذي ينفعه مثل هذا الدواء ، كما يجب أن يكون المعالج حاذقاً ماهراً بحيث يعطي كل مريض ما يحتاجه من العلاج حتى يقع الدواء موقعه من الداء ، وأن لا يفسد بالعلاج أو الدواء أكثر مما يصلح .

ولهذا فهو يقسم الناس بالنسبة إلى هذا المنهج العقلي إلى أربعة أقسام :

١- الكفرة والمبتدعة الذين جمدوا على التقليد لما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم ، وهؤلاء لا يجديهم مثل هذا المنهج ، ولا ينفع معهم غير القوة .

٢- الذين اعتقدوا الحق تقليداً أو سماعاً ، ولكنهم وهبوا ذكاء فطرياً فتنبهوا إلى شبهات أو إشكالات جالت في صدورهم ، أو شككتهم في عقائدهم ، فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم ، وإزالة الشكوك من نفوسهم بما يمكن من الكلام المقنع المقبول عندهم ، كالاستشهاد بآية ، أو حديث ، أو قول إمام موثوق عندهم ... الخ . فإن لم يقتنعوا إلا بكلام برهاني عقلي ، فحينئذ يجوز أن يشافهوا بالدليل العقلي ، ولكن بحسب الحاجة ، وعلى قدر استعدادهم له ، وفي موضع الإشكال دون غيره .

٣- المفارقون لعقائدهم من غير المسلمين لما اعتراهم في عقائدهم الأولى من الريب والشكوك ومن في حكمهم ممن في نفوسهم استعداد لقبول التشكيك ، وعندهم استعداد لقبول الحق واعتقاده بعد القناعة به وإقامة البرهان عليه . وهؤلاء يجب التلطف بهم وإرشادهم بالدليل الصحيح إلى الحق ، دون مجادلة أو عصبية .

ولهذا كان التبحر في هذا العلم ، والاشتغال به من فروض الكفاية ، لا من فروض الإيمان (١) .

ولكن : هل من شأن هذا المنهج العقلي ، ومن شأن هذه البراهين الفطرية أن توصل الى الإيمان اليقيني الذي لا يخالفه شك ولا تعتريه ريبة ؟

أم أن هناك طريقاً آخر غيرهذا المنهج العقلي يمكن أن يصل بنا إلى هذا اليقين ؟

وإذا كان من شأن هذا المنهج أن يصل بطالبي الحق إلي اليقين ، فهل هناك طريق آخر آكد منه وأوثق ؟ أم أن هذا الطريق هو آكد الطرق وأوثقها ؟

للإجابة على ذلك نرى الإمام الغزالي يقسم الإيمان إلى ثلاثة أقسام :

١- إيمان العوام : وهو المبني على مجرد التقليد . وهذا في نظره أضعف الإيمان(٢) .

٢- إيمان المتكلمين : وهو المبني على الاستدلال العقلي . وهو في نظر الغزالي

---

(١) « الاقتصاد في الاعتقاد » : ٩ .

(٢) انظر « إلجام العوام » ١٢١/٢ من مجموع القصور العوالي ١٩٧٠م .

٢- تعود نشأة الخلاف الذى حدث بين المسلمين مطلقاً إلى ظروف متعددة عاشها المسلمون : يعود بعضها إلى طبيعة الإنسان نفسه ، وإلى طبيعة الإسلام ، وطبيعة اللغة التى جاء بها الإسلام ، ونزل بها القرآن .

ويعود بعضها إلى ظروف : سياسية ، ودينية ، وفكرية عاشها المسلمون .

وإن كنا لا ننكر تسرب عناصر أخرى - فيما بعد - من ثقافات ، وديانات ، وأفكار غزت الوسط الإسلامى وشابت فكر المسلمين .

وهذا الخلاف فى جملته إن دل على شئ ، فإنما يدل على حفز الإسلام لعقول المسلمين ، ومدى ما تمتع به المسلمون من حرية فى الرأى والفكر ، فى ظل حرية الإسلام ، وسماحة هذا الدين .

٣- هذا الخلاف الذى حدث بين المسلمين حول الحقيقة الإلهية ، والعقائد الإسلامية - مع أن الجميع يقصد الحق ويتغياه - أساسه اختلاف المداخل ، وتعدد المناهج التى سلكها كل باحث ، واتبعها كل مفكر ، ولو توحدت المداخل التى يلج منها كل باحث ، والمناهج التى يتبعها كل مفكر ، لتوحدت النتائج ، وانتهى المسلمون من ثم إلى رأى واحد ، ونتيجة حاسمة قاطعة .

٤- لما كان الخلاف حول العقائد الإسلامية ضرورة اقتضتها حاجة الدفاع عن الإسلام ضد أعداء الإسلام ، وحاجة الدعوة إلى الإسلام ، لإثبات حقائقه وعقائده ، حتى يكون الناس على بينة وبصيرة من أمره .

ولما كان الجميع من هؤلاء الفرقاء يريد السمو بالذات الإلهية إلى درجة التنزيه ، والتقديس ، والإجلال اللائق بها ، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى درجة التجريد والتعطيل .

وكان البعض يريد المحافظة على قداسة النص الإسلامى ، والإبقاء عليه بعيداً عن أيدى العابثين به ، والمؤولين له ، حتى وصل الأمر ببعضهم - جرياً مع ظاهر النص - إلى حد التشبيه والتجسيم . ونتيجة لذلك : كان المنهج الوسط بين التجريد والتشبيه ، وهو منهج أهل السنة والجماعة .

لما كان ذلك كذلك كان من واجبنا ، ومن واجب كل باحث أن لا يضع واحداً من هؤلاء - ماداموا يريدون الحق ويبتغونه ، ويريدون المحافظة على قدسية الذات الإلهية ، وقداسة النص الإسلامى - موضع الإتهام والتجريح ، وأن يرميه بالمروق من الدين لمجرد أنه أراد الحق فأخطأه ، وإن كان من واجبنا أن نعمل على تقويم هذه المناهج ، وتصحيح هذه الأخطاء ، ووضع أقدام الناس على الطريق الصحيح

للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

٢- إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن الغيب ، فإذا جاز ذلك للنبي ، جاز لغيره كذلك ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، ولا يستحيل أن يكون هناك من يكاشف بمثل هذه الحقائق وإن لم يكن نبياً كالأولياء ، ويمكن التفريق بين النبي والولي بدعوى النبوة والتحدى .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصالحة ، لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة ، أو يقر بباب ينفتح على عالم الملكوت ، هو باب الإلهام ، والنفث في الروع (١) .

ويستدل الغزالي على ذلك أيضاً بكثير مما ورد به القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة في هذا الباب ، من ذلك قول الحق جل وعز : { والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله مع المحسنين } { يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً } أي نوراً تفرقون به بين الحق والباطل { وعلمناه من لدنا علماً } أي بلا سبب مألوف وهو التعلم { أفمن شرح الله صدره للإيمان فهو على نور من ربه } وفي الحديث الشريف : « إن من أمتي محدثين ، ومعلمين ، ومكلمين ، وإن عمر منهم » والمحدث : الملهم ، والملهم : هو الذي انكشف له الحق في باطنه .

والطريق إلى هذا النوع من الحقائق التي يعجز العقل ببراهينه عن الوصول إليها هو : صدق الإرادة ، ومضاء العزيمة ، وتجريد الهم ، وتقديم المجاهدة ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى حتى تصفو النفس ، ويطهر القلب ، ويستعد لقبول الإشراق والفيض ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

« نتائج البحث »

بعد هذا العرض الموجز لمشاكل الفكر الإسلامي حول الحقيقة الإلهية ، ومناهج البحث في العقائد الإسلامية نخلص إلى النتائج الآتية :

١- الكف عن الجدل حول الحقيقة الإلهية ، أو وضع الذات الإلهية من حيث الكنه والحقيقة موضع البحث والنظر :

أ- إما لاستحالة إدراكها مطلقاً .

ب - وإما لعدم جدوى البحث فيها والاختلاف حولها - وإن كانت غير ممتنعة الإدراك لذاتها - نظراً لعجز العقل البشري وقصوره عن الوصول في هذا الباب إلى علم يقيني بكنهها ، ومن ثم يجب غلق هذا الباب مطلقاً ، إبقاء على قداسة الذات الإلهية من عبث الرأي ، وخطل الفكر .

(١) « المنقذ من الضلال » : ١٨٠- ١٨٤ ، ٢٠٨- ٢٠٩ .

دون اتهام أو تجريح .
٥- هذا الخلاف الذى حدث ، ويحدث دائماً بين المسلمين حول حقائق الإسلام وعقائده ومبادئه يجعلنا نضع فى اعتبارنا دائماً حقيقة هامة هي : الفرق بين الإسلام نفسه كما جاء به القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، وبين فهمنا نحن للإسلام ، وتفسيرنا لنصوصه ، وتناولنا لقضاياه ، مما يمكن وصفه بأنه « إسلامى » دون القطع بأنه « إسلام » لأن فهمنا للإسلام أعم من أن يكون مطابقاً للإسلام ، أو مخالفاً له ، ولهذا اختلف المسلمون مع أن حقيقة الإسلام واحدة ، والحق واحد لا يتعدد ولا يختلف ، وما جاء به الإسلام - وهو الحق - لا يتطرق إليه الخطأ بحال ، بخلاف ما نجده من آراء حول قضايا الإسلام ، فإنها عرضة للخطأ والصواب . وهذه حقيقة يجب أن نضعها نصب أعيننا ، وأن نعيها دائماً حتى لا نحمّل الإسلام ، أو يحمّله غيرنا خطأ المسلمين .
٦- هذه المناهج المتعددة التى رأيناها حول البحث فى العقائد الإسلامية تضع أيدينا على اتجاهات متعددة ، يعبر كل منهج منها عن طبيعة أصحابه واتجاههم ، ومدى استعدادهم العقلى والفكرى ، وكل منهج من هذه المناهج لائق بأصحابه دون غيرهم ، ولذلك فهو لا يعبر إلا عن نوع خاص من الناس ، ولا يمثل غير جزء واحد من الحقيقة دون أن يجمع أطرافها جميعاً .
ولهذا كان المنهج الغزالى - فى نظرنا - أفضل هذه المناهج وأعمها ، حيث جمع بين العقل ، والنص ، والذوق جميعاً مراعياً بذلك اختلاف الناس ، ودرجات استعدادهم ، والمنهج الذى يليق بكل طائفة منهم ، وكان بذلك أقرب إلى منهج القرآن فى الدعوة إلى الإسلام .
٧- هذا الخلاف المضنى ، وهذه الأبحاث العقلية الدقيقة التى نجدها ويجدها الناس فى علم الكلام والفلسفة - والتى يعز على كثير من الناس فهمها - من شأنها أن تعود بالمسلمين إلى مصدر دينهم : « القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة » بحيث تبقى هذه الأبحاث وقفاً على المتخصصين فيها .
ولو أننا عدنا إلى القرآن الكريم وهو دعوة إلى الناس جميعاً - على اختلاف منازعهم ومشاربهم ، ودرجات استعدادهم الفطرى والعقلى - لوجدنا كل هذه الأنهاج وغيرها مسطوراً فى القرآن الكريم على أعظم وجه وأفضله ، حيث جمع القرآن فى محكمه - الذى لا يقبل صرفاً ، ولا تأويلاً ، ولا جدلاً ، ولا مراء - بين الدلائل الحسية ، والمبادئ الفطرية ، والضرورات العقلية ، والبراهين اليقينية ،

والإشراقات البصيرية ، والحقائق العلمية ، والثوابت التاريخية ، والأمثال القرآنية وغيرها .. مما يمكن أن يصل بطالبى الحق - على اختلاف حظوظهم من العقل ، ونصيبهم من الثقافة والعلم - إلى التصديق بعقائده ، والإذعان لحقائقه (١) .

من أجل ذلك كله ، كان القرآن الكريم حرياً أن يصل بدعوته إلى ما أراد من قناعة الناس به ، وهدايتهم إليه { فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى } (٢) .

فالله أسأل أن يجعلنا ممن اتبع هداه ، لا ممن اتخذ إلهه هواه ، وأن يجعل قصدنا إلى الحق ، ومسعانا إلى الخير ، ومنتهانا إلى مغفرة منه ورضوان ..

إنه سميع قريب مجيب

د . عبدالرحمن محمد المراكبى

---

(١) وهذا مجال موضوع آخر للبحث سوف نتناوله فى فرصة أخرى بمشيئة الله تعالى .

(٢) طه / ١٢٣ .